كيف نفهم القرآن الكريم

{ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٩)} [ص: ٢٩]

مبارك؛ أي: كثيرُ البركات والخيرات، فمن تعلَّمه وعمِل به، غمَرته الخيرات في الدنيا والآخرة.

القرآن الكريم بركاته كثيرة، لا يمكن عدُّها ولا حصرها، فمنها:

أنَّ فيه بيانًا لكل شيءٍ:

قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: ومن بركة القرآن أنه لا يُمكن أن تحدثَ حادثةٌ إلا ووجدتَ في القرآن حلَّها؛ إما عن طريق الدلالة الصريحة، أو طريق الإيماء.

الفضل العظيم في تلاوته وتعليمه وتعلُّمه والاجتماع على تلاوته:

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((خيرُكم من تعلَّم القرآن وعلَّمه))؛ أخرجه البخاري.

وعن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن قرأ حرفًا من كتاب الله، فله به حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: ألم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف))؛ أخرجه الترمذي.

قال العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: وبركة القرآن .... في الثواب الحاصل بتلاوته، فإن من قرأ حرفًا واحدًا منه، فله بكل حرف عشر حسنات، وهذه بركة عظيمة، وقال رحمه الله: من بركات القرآن ... ما رُتِّب عليه من الثواب في المنزلة، لا في كثرة الأجر، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((الماهر بالقرآن مع السَّفرة الكرام البرَرة، والذي يقرأ القرآن ويتتعتع فيه، وهو عليه شاقٌّ، له أجران))، وقال رحمه الله: من بركات القرآن ... أنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه، وما أحوجَ الإنسان للشفعاء؛ لأن الإنسان محلُّ قصورٍ، فيحتاج إلى مَن يَشفَعُ له عند الله سبحانه وتعالى.

أنه حصنٌ حصينٌ من فتنة الدجال، وشر الشياطين، وكيد السحرة:

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((مَن حفِظ عشر آيات من أول سورة الكهف، عُصِمَ من الدجال))؛ أخرجه مسلم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه الصلاة والسلام: ((لا تَجعلوا بيوتكم مقابرَ؛ إن الشيطان يَنفِر من البيت الذي تُقرأُ فيه سورة البقرة))؛ أخرجه مسلم.

الشعور بالراحة النفسية وانشراح الصدر عند تلاوته:

قال الله عز وجل: ? الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ? [الرعد: ٢٨]،

أنه شفاء لأمراض القلوب والأبدان لمن أحسن الاستشفاء به:

الشفاء، والشفاء الحاصل بالقرآن نوعان:

النوع الأول: شفاء معنوي.

النوع الثاني: شفاء حسي.

أما الشفاء المعنوي، فهو الشفاء من أمراض القلوب، من الشبهات والشهوات، وأما الشفاء الحسي، فمن بركته أنه شفاء للإمراض الحسية، أمراض البدن، وهذا شيء مُشاهد مُجرب، فكم من إنسان مريض عجَز عنه الأطباءُ، شفاه الله بالقرآن الكريم.

تقديم الحافظين له العاملين به على غيرهم:

فعن نافع بن عبدالحارث أنه لقِي عمر بن الخطاب رضي الله عنهما بعُسفان، وكان عمر يستعمله على مكه، فقال له عمر: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن ـ()

أبزى، قال: ومَن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا، قال: فاستخلفتَ عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أَمَا إن نبيَّكم صلى الله عليه وسلم قال: ((إن الله يرفَع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين))؛ أخرجه مسلم.

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يجمعُ بين الرجلين من قتلى أُحُد، ثم يقول: ((أيُّهم أكثرُ أخذًا للقرآن))، فإن أُشير إلى أحدهما، قدَّمه في اللحد؛ أخرجه البخاري.

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يؤمُّ القوم أقرؤُهم لكتاب الله تعالى))؛ أخرجه مسلم.

ومن المفيد هنا أن نعلم أنواع التفاسير التي تساعد في فهم كلام الله تعالى:

أولًا: التفسير بالمأثور (التفسير بالرِّواية):

التفسير بالمأثور، إما أن يكون تفسير القرآن بالقرآن، أو تفسير القرآن بالسُّنة؛ لأنها جاءتْ مُبيِّنةً لكتاب الله، أو تفسير القرآن بما رُوي عن الصحابة؛ لأنهم أعلم الناس بكتاب الله تعالى.

@ أمثلة لتفسير القرآن بالقرآن:

(١) قوله سبحانه: { وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ } [البقرة: ١٨٧]، فإن قوله: { مِنَ الْفَجْرِ } بيانٌ وشرحٌ للمُراد من قوله: { الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ } التي قبلها.

(٢) قوله سبحانه: { أُحِلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةُ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ } [المائدة: ١] جاء تفصيله في قوله تعالى: { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ } [المائدة: ٣] الآية

(٣) عَنْ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام: ٨٢] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَا يَظْلِمُ نَفْسَهُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " لَيْسَ هُوَ كَمَا تَظُنُّونَ، إِنَّمَا هُوَ كَمَا قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ: {يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان: ١٣] "

ومن أفضل الكتب التي فسرت القرآن بالقرآن أضواء البيان للشنقيطي

أمثلة لتفسير القرآن بالسنة:

تفسير النبي صلى الله عليه وسلم الحساب اليسير بالعرض؛ روى البخاري عن عائشة، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((مَنْ نُوقِشَ الحِسابُ عُذِّبَ))، قالت: قلتُ: أليس يقول الله تعالى: { فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا } [الانشقاق: ٨]، قال: ((ذلك العرض))؛ (البخاري، حديث: ٦٥٣٦).

- قوله صلى الله عليه وسلم: ((ذلك العرض))، هذا بيانٌ للحساب اليسير؛ أي: عرض أعمال المؤمن عليه لتذكيره بها فقط.

(٢) تفسير النبي صلى الله عليه وسلم "القوة" بـ"الرمي" في قوله سبحانه: { وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [الأنفال: ٦٠]، روى مسلم عن عقبة بن عامر، قال: سمِعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر، يقول: (({ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ } [الأنفال: ٦٠]، ألَا إنَّ القوة الرَّمي، ألَا إنَّ القوةَ الرَّمْي، ألَا إنَّ القوةَ الرمي))؛ مسلم

(٣) روى الشيخان عن أبي ذرٍّ، قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى: { وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا } [يس: ٣٨]، قال: ((مستقرُّها تحت العرش)) متفق عليه.

التفسير بأقوال الصحابة:

@ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ} قَالَ ابْنَ عَبَّاس وَأَكْثَر مفسري السّلف ارْتَفع إِلَى السَّمَاء .

@قوله تعالى: {أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا} [النساء: ٤٣]، [المائدة: ٦]
روي عن علي وابن عباس أن المراد به الجماع
ومن أفضل الكتب التي فسرت القرآن بالمأثور الدر المنثور للسيوطي وكذلك موسوعة التفسير بالمأثور شملت المرفوع والموقوف والمقطوع وتقع في ٢٥ مجلد كبار.

@شروط المفسر:

@العلم والاجتهاد:

أولًا :سلامة العقيدة:
فإن من انحرفت عقيدته يعتقد رأيا ثم يحمل ألفاظ القرآن عليه وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين١، فإذا فسر القرآن أوَّل الآيات التي تخالف مذهبه الباطل، وحرفها حتى توافق مذهبه، ومثل هذا لا يطلب الحق فكيف يُطلب منه! ومن هؤلاء فرق الخوارج والروافض والمعتزلة وغلاة الصوفية وغيرهم.
ثانيًا :التجرد عن الهوى:
فإن الهوى يحمل صاحبه على نصرة مذهبه ولو كان باطلا، ويصرفه عن غيره ولو كان حقا.
أمثلة
قول باطنية الشيعة في تفسير قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً) [البقرة: ٦٧]، قالوا: هي عائشة.
وقولهم في تفسير قوله تعالى: {فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ} [التوبة: ١٢]؛ هم أبوبكر وعمر.
وهذا التفسير يخالف ما تقرر في الشرع من فضل أمهات المؤمنين، زوجات الرسول صلى الله عليه وسلم.
ويخالف ما تقرر في الشرع من فضل أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فهذا التفسير باطل لمخالفته المتقرر في الشرع على خلافه.
وقول المعتزلة والأشاعرة والمؤولة في تفسير قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} [طه: ٥]، استوى بمعنى استولى.
وهذا التفسير والتأويل باطل، لأنه يخالف التفسير المأثور من أن معنى استوى : علا وارتفع.
والاستيلاء يقتضي وجود من ينازع الله في ملكة تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا.
فهذا تأويل باطل مردود.
وقول بعض الصوفية، في تفسير قوله تعالى: {وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ } [الحجر: ٩٩]، اليقين مرتبة إذا بلغ إليها العبد سقطت عنه التكاليف.
وهذا تفسير باطل لأنه يقتضي أن الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة الأفاضل لم يبلغوا هذه الدرجة، فقد عبدوا الله حتى ماتوا ولم تسقط عنهم التكاليف، ومعنى ذلك أن هؤلاء الصوفية بلغوا مرتبة لم يبلغها الرسول صلى الله عليه وسلم واصحابه رضي الله عنهم!
ولأن الوارد فيه تسمية الموت باليقين، فهو تفسير يخالف المأثور، ويخالف المتقرر في الدين!

ثالثًا :أن يكون المفسر عالما بأصول التفسير:
وذلك أن أصول التفسير بمثابة المفتاح لعلم التفسير، فلا بد للمفسر أن يكون عالما بالقراءات والناسخ والمنسوخ وأسباب النزول والمكي والمدني والاسرائيليات ونحوها.
رابعًا :أن يكون عالما بالحديث رواية ودراية:

إذ إن أحاديث الرسول -صلى الله عليه وسلم- هي المبينة للقرآن، بل قد قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى" :كل ما حكم به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فهو مما فهمه من القرآن"٢ .وقال الإمام أحمد رحمه الله تعالى" :السنة تفسر القرآن وتبينه"٣.

خامسًا :أن يكون عالمًا بأصول الفقه:

إذ به يعرف كيف تستنبط الأحكام من الآيات، ويستدل عليها، ويعرف الإجمال والتبيين، والعموم والخصوص، والمطلق المقيد، ودلالة النص وإشارته ودلالة الأمر والنهي.. وغير ذلك١.

سادسا :أن يكون عالمًا باللغة وعلومها:

كالنحو والصرف والاشتقاق، والبلاغة بأقسامها الثلاثة "المعاني والبيان والبديع."

ذلكم أن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين، وهذه العلوم مما يتوصل بها إلى معرفة المعنى وخواص التركيب ووجوه الإعجاز فيه.

وهذه الشروط -كما ترى- عزيزة المنال ولهذا تحرج كثير من السلف من القول في القرآن بغير علم لتمكن الإيمان من قلوبهم واستحضارهم الخوف من الله تعالى، وإذا رأيت من يجترئ على القول في القرآن بغير علم فاعلم أنه من نقص إيمانه، والله المستعان.

التفسير بالرأي المذموم:

روى الشيخان عَنْ عَمْرِو بْنِ العَاصِ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «إِذَا حَكَمَ الحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا حَكَمَ فَاجْتَهَدَ ثُمَّ أَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»

قال النووي: قالوا فأما من ليس بأهل للحكم فلا يحل له الحكم فإن حكم فلا أجر له بل هو إثم ولا ينفذ حكمه سواء وافق الحق أم لا لأن إصابته اتفاقية ليست صادرة عن أصل شرعي فهو عاص في جميع أحكامه سواء وافق الصواب أم لا وهي مردودة كلها ولا يعذر في شيء من ذلك.

روى أبو داود عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «مَنْ تَطَبَّبَ، وَلَا يُعْلَمُ مِنْهُ طِبٌّ، فَهُوَ ضَامِنٌ»

وعلى ذلك فمن أراد الكلام في فهم القرآن وتفسيره فلابد وأن يكون أهلا لهذا العمل وإلا فهو آثم وعليه أن ينظر في كلام أهل التفسير ولا يجتهد من تلقاء نفسه ويتقول على كتاب الله بغير علم.

التفسير بالرأي: هو ما يعتمد فيه المفسر في بيان المعنى على فهمه الخاص واستنباطه بالرأي المجرد -وليس منه الفهم الذي يتفق مع روح الشريعة، ويستند إلى نصوصها- فالرأي المجرد الذي لا شاهد له مدعاة للشطط في كتاب الله، وأكثر الذين تناولوا التفسير بهذه الروح كانوا من أهل البدع الذين اعتقدوا مذاهب باطلة وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على رأيهم وليس لهم سَلَف من الصحابة والتابعين لا في رأيهم ولا في تفسيرهم، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم، كتفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم، والجبائي، وعبد الجبار، والرماني، والزمخشري وأمثالهم.

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة يدس مذهبه في كلام يروج على كثير من الناس كما صنع صاحب الكشاف في اعتزالياته وإن كان بعضهم أخف من بعض، فمنهم طوائف من أهل الكلام أوَّلت آيات الصفات بما يتفق مع مذهبها، وهؤلاء أقرب إلى أهل السُّنَّة من المعتزلة، إلا أنهم حين جاءوا بما يخالف مذهب الصحابة والتابعين فقد شاركوا المعتزلة وغيرهم من أهل البدع.

حكم التفسير بالرأي:

وتفسير القرآن بمجرد الرأي والاجتهاد من غير أصل حرام لا يجوز تعاطيه، قال تعالى: {وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ} ١، وقال, صلى الله عليه وسلم: "من قال في القرآن برأيه -أو بما لا يعلم- فليتبوأ مقعده من النار" ، وفي لفظ: "من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ". ولهذا تحرج السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، فقد رُوِي عن يحيى بن سعيد عن سعيد بن المسيب: أنه كان إذا سئل عن تفسير آية من القرآن قال: "إنَّا لا نقول في القرآن شيئًا"٣.
وأخرج أبو عبيد القاسم بن سلام: "أن أبا بكر الصديق, رضي الله عنه سئل عن الأب في قوله تعالى: {وَفَاكِهَةً وَأَبّاً} ٤, فقال: "أي سماء تظلني؟ وأي أرض تقلني؟ إذا قلت في كلام الله ما لا أعلم"٥.
قال الطبري: "وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا: من أن ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يُدْرَك علمه إلا بنص بيان رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أو بنصبه الدلالة عليه، فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه، بل القائل في ذلك برأيه -وإن أصاب الحق فيه- فمخطئ فيما كان من فعله، بقيله فيه برأيه؛ لأن إصابته ليست إصابة موقن أنه محق، وإنما هي إصابة خارص وظان، والقائل في دين الله بالظن، قائل على الله ما لا يعلم، وقد حرم الله جل ثناؤه ذلك في كتابه على عباده، فقال: {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَاناً وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ} ٦.
فهذه الآثار وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تحرجهم من الكلام في التفسير بما لا علم لهم به. أما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعًا فلا حرج عليه ولهذا رُوِي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير -ولا منافاة- لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل إنسان، ويكون الأمر أشد نكيرًا لو ترك التفسير بالمأثور الصحيح وعدل عنه إلى القول برأيه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وفي الجملة من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئًا، بل مبتدعًا؛ لأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله, صلى الله عليه وسلم".
وقال الطبري: "فأحق المفسرين بإصابة الحق في تأويل القرآن -الذي إلى علم تأويله للعباد سبيل- أوضحهم حجة فيما تأوَّل وفسَّر, مما كان تأويله إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- دون سائر أمته، من أخبار رسول الله -صلى الله عليه وسلم- الثابتة عنه، أما من جهة النقل المستفيض فيما وجد فيه من ذلك عنه النقل المستفيض، وإما من جهة نقل العدول الأثبات، فيما لم يكن فيه عنه النقل المستفيض، أو من جهة الدلالة المنصوبة على صحته، وأصحهم برهانًا -فيما ترجم وبيَّن من ذلك - مما كان مدركًا علمه من جهة اللسان، إما بالشواهد من أشعارهم السائرة، وإما من منطقهم ولغاتهم المستفيضة المعروفة، كائنًا من كان ذلك المتأوِّل والمفسِّر، بعد أن لا يكون خارجًا تأويله وتفسيره ما تأول وفسَّر من ذلك، عن أقوال السلف من الصحابة والأئمة، والخَلَف من التابعين وعلماء الأمة"١.
@ إنما دواء العي السؤال:
قال معاوية رضي الله عنه يومًا لابن عباس: (إني قد ضربتني أمواج القرآن البارحة في آيتين لم أعرف تأويلهما ففزعت إليك، قال: وما هما؟ قال: قول الله: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ} [الأنبياء: ٨٧] وأنه يفوته إن أراده. وقول الله: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} [يوسف: ١١٠] كيف هذا يظنون أنه قد كَذَبهم ما وعدَهم؟ فقال ابن عباس: أما يونس فظن أن لن تبلغ خطيئته أن يقدر الله عليه فيها العقاب، ولم يشك أن الله إن أراده قدر عليه. وأما الآية الأخرى فإن الرسل استيأسوا من إيمان قومهم،

وظنوا أن من عصاهم لرضا في العلانية قد كذبهم في السر، وذلك لطول البلاء، ولم تستيئس الرسل من نصر الله، ولم يظنوا أنه كذَّبَهم ما وعدهم. فقال معاوية: فرّجت عنّي يا ابن عباس فرج الله عنك).

فإن أشكل عليك شيء فانظر في كتاب من كتب التفاسير المعتمدة اتقف على تفسير ما أشكل عليك فإن لم يتيسر لك الأمر فعليك بسؤال أهل العلم .